مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 743 - 759 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الاستراتيجية التوجيهية في رسائل "يوسف بن تاشفين"
– مقاربة تداولية–

The Guiding Strategy in'Yusuf Ibn Tashfin' Letters
–A Pragmatic Approach-

صارة مزياني[1]*، أ.د فاتح حمبلي[2]

Sarra meziani[1], fateh hambli[2].

مخبر تعليمية اللغة العربية و النص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري، الواقع والمأمول

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

Laboratory The Arabic language and literary text Didactics in the Algerian educational system, reality and expectations

Larbi Ben M'hidi University, Oum El Bouaghi (Algeria),

mezainisara@gmail.com[1] /hamblifateh1@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال:2020/04/19	تاريخ القبول:2020/09/29	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نستخرج أهم الاستراتيجيات التواصلية التي استند عليها "يوسف بن تاشفين" في رسائله ومنها الاستراتيجية التوجيهية، هذه الأخيرة التي تعد من أبرز الاستراتيجيات التي يتوخاها المرسل خلال إنتاج خطابه ليحقق أقصى تأثير له في المتلقي، وقد تجسّدت في رسائل "يوسف بن تاشفين" من خلال آليات لغوية ارتكز عليها لتبليغ القصد وتحقيق الهدف وذلك بالانزياح عن مبدأ التأدب الخطابي، فما هي أهم وسائل هذه الاستراتيجية التي استند عليها المرسل؟ وماهي غاياتها التخاطبية ؟

وقد اعتمدنا على آليات المقاربة التداولية التي تسمح لنا بالاهتمام بكل ملابسات الخطاب بدءا بالقصد، والسياق، وانتهاء بالعلاقة التخاطبية، وتوصلنا إلى أن السياق العام للخطاب كان يفرض حضور هذه الاستراتيجية، وقد تبين لنا ذلك من خلال الآليات اللغوية التي اعتمدها المرسل بصورة متكررة خاصة الأمر والنهي الذين كانا لهما دور فعّال في تبليغ قصده وتحقيق هدفه التوجيهي.

الكلمات المفتاح : يوسف بن تاشفين، استراتيجية توجيهية، رسائل، آليات لغوية، تداولية.

* صارة مزياني: mezainisara@gmail.com

Abstract : In this study, we extract most important communicative strategies that 'Yusuf Ibn Tashfin' adopted in his letters, mainly guiding strategy which is one important strategy on which the addresser relies in producing speech to achieve maximum impact on addressee. It appears in his letters through using linguistic mechanisms to communicate intended meaning and achieve goals by shifting from rhetorical politeness principle. So, what are the important means of this strategy adopted by the addresser? And what are its communicative purposes? Accordingly, we relied on pragmatic approach mechanisms which allow us to give importance to all speech elements from intention, context, to conversational relationship. Thus, we conclude that the general context of speech imposes the presence of this strategy through linguistic mechanisms the addresser repeatedly relied on, mainly command and prohibition for their effective role in communicating his intentions and achieving his guiding goals.

Keywords: Yusuf Ibn Tashfin, guiding strategy, letters, linguistic mechanisms, pragmatic.

مقدمة:

يسعى كل مخاطب أثناء العملية التواصلية إلى التعبير عن مقصده وتحقيق أهداف محددة، معتمدا في ذلك على الإمكانات اللغوية وغير اللغوية، التي يحددها السياق المحيط بين طرفي هذه العملية و" يتجلى هذا التنظيم عند التلفظ بالخطاب فيما يسمى باستراتيجية الخطاب وهذا يعني أن الخطاب المنجز يكون خطابا مخططا له، بصفة مستمرة وشعورية"[1] فيختار المرسل انطلاقا من هنا استراتيجية معينة تعبر عن قصده من جهة وتكون مناسبة لسياق تلفظه من جهة أخرى .

وتختلف الاستراتيجيات من خطاب إلى آخر مما يؤدي إلى تنوع الأدوات والآليات المستعملة فيها؛ لأنها" عمل عقلي يبنى على افتراضات مسبقة، تتجسد من خلال أدوات ووسائل تناسب سياق استعمالها"[2] فالمخاطب عند انتقائه لاستراتيجية معينة يجب أن يراعي العلاقة بينه وبين المتلقي والسياق المحيط به، وهدفه من الخطاب وغيرها من المعايير التي يمكن إجمالها فيما يلي[3] :

- معيار هدف الخطاب و المتمثل في الاقناع وتندرج تحته الاستراتيجية الإقناعية.
- معيار لغوي يتعلق بشكل الخطاب من حيث دلالته على قصد المرسل وهذا المعيار تندرج تحته الاستراتيجية التلميحية.

- معيار اجتماعي أو معيار العلاقة التخاطبية وعلى ضوء هذا المعيار تنشئ الاستراتيجية التوجيهية التي ستكون محور مقالنا، وبالتحديد في خطاب "بن تاشفين" حيث تظهر هذه الاستراتيجية في رسائله من خلال الأدوات اللغوية المستعملة فيه، ومن هذا المنطلق نسعى إلى محاولة الإجابة عن التساؤلات التي يفرضها الموضوع مفادها: كيف تجلت الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين؟ ماهي ملابساتها السياقية؟ وماهي أهم الآليات اللغوية التي جسّدت هذه الاستراتيجية؟

كما نسعى أيضا إلى معرفة دور الآليات اللغوية التوجيهية، وأثرها في تبليغ قصد المرسل انطلاقا من بعض الرسائل التي تخدمنا في هذا السياق.

ومن أجل تحقيق ذلك واستجابة لما تتطلبه طبيعة البحث، فإننا قد اعتمدنا في التحليل على المنهج التداولي وهو" مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح"[4]، معتمدا على السياق الذي هو أساس العملية التخاطبية، كونه يفرض على المتكلمين استراتيجية يقتضيها السياق.

أولا– العوامل المؤثرة في اختيار الاستراتيجية:

تنبني الاستراتيجية الخطابية على عدة عوامل وعناصر "ذات الأثر البالغ في استعمال اللغة وتأويلها ومن ذلك أثرها في توجيه المرسل لاختيار استراتيجية مناسبة للسياق بغض النظر عن معيار التصنيف"[5] من هذه العوامل:

1– المقاصد:

للمقاصد أهمية كبيرة في اختيار استراتيجية الخطاب، "حيث يرتكز دورها بوجه عام على بلورة المعنى كما هو عند المرسل، إذ يستلزم منه مراعاة كيفية... انتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى "[6] ولهذا يجب على المرسل أن يراعي كيفية التعبير عن قصده لأنها أساس العملية التواصلية" فلا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل "[7] و يتحدد قصد المرسل من خلال عناصر السياق اللغوي وغير اللغوي الذي يصاحب الخطاب، كونه ركيزة أساسية لتجسيد معنى المرسل وغايته المتمثلة في إفهام المرسل إليه، ونظرا لأهمية المقاصد "يرى سيرل أن للمقاصد أطر معينة في ذهن المرسل إليه، ويتم توصيل القصد بين الطرفين عن طريق مراعاة اللغة في مستوياتها المعروفة ومنها المستوى الدلالي، وذلك بمعرفة

العلاقة بين الدوال والمدلولات، وكذا بمعرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالها، وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات التي تنظم انتاج الخطاب"[8] وعليه فإن امتلاك المرسل للغة في مستوياتها المعروف وربطها بمقتضيات السياق التواصلي شرط أساسي لبناء استراتيجيته الخطابية ومنه تحقيق صحة الفهم والتأويل لدى المتلقي.

2- السلطة:

إن السلطة في مفهومها العام هي "الحق في الأمر فهي تستلزم آمرا ومأمورا وأمرا، آمرا له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأمور عليه واجب الطاعة للآمر بتنفيذ الأمر الموجه إليه" [9] إن هذا التعريف ينطبق على بعض الأطر الاجتماعية إلا أنه يعد تعريفا قاصرا في عملية إنتاج الخطاب للأسباب الآتية [10]:

- لأن المجتمع ليس بنى تراتبية هرمية تنتمي إلى المجال الوظيفي وحده، فالتفاعل الخطابي يحدث بين الناس في كل المستويات وفي كل الظروف، وبهذا فإن للسلطة تأثيرا في إنتاج الخطاب وتأويله.
- أنه لا يمكن النظر إلى السلطة على أنها معطى سابق فقط، إذ يمكن أن يمتلكها الإنسان بمجرد التلفظ بالخطاب.

ومع ذلك فإن السلطة في الخطاب -والتي تقوم على اللغة المستعملة في التواصل- تستدعي وجود طرفين في الخطاب لكل منهما دوره، أحدهما آمر والطرف الآخر مأمور، و من هنا تظهر أهمية السلطة في انتاج الخطاب، حيث "يتجلى دورها بوصفها محددا رئيسيا في ترجيح استراتيجيات معينة دون استراتيجيات أخرى"[11] فالمرسل يختار استراتيجية لخطابة وفقا لما تقتضيه سلطته، خاصة الاستراتيجية التوجيهية التي غالبا ما يكون فيها المرسل أعلى سلطة من المرسل إليه لكي يتحقق فعل التوجيه.

و لا تقتصر السلطة على المرسل والمرسل إليه فقط بل لها أبعاد أخرى، كسلطة اللغة المتمثلة في مجموع القواعد المنظمة لها، حيث يجب على المرسل أن يتقيد بها ولا يخرج عليها وبالتالي فهي تفرض سلطتها عليه.

بالإضافة إلى سلطة المجتمع الذي " يفرض ما هو مناسب من الموضوعات والاختيارات على المرسل فلا يستطيع أن يقول كل شيء أو أن يتحدث في أي موضوع"[12] فهو يفرض قيودا على المخاطب يكون ملزما بأن يأخذها بعين الاعتبار لبناء استراتيجيته.

إذن فالسلطة والمقصد لهما أثر كبير على المرسل، في اختيار وترجيح استراتيجية معينة للتعبير عن قصده و بلوغ هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه، فإذا كان هدفه توجيه المرسل إليه من خلال أفعال إنجازيه مختلفة، فإنه في هذه الحالة يلجأ إلى استراتيجية يطلق عليها الدارسون الاستراتيجية التوجيهية.

ثانيا– تعريف الاستراتيجية التوجيهية:

1– لغة:

جاء في "لسان العرب لابن منظور" قوله تعالى" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفا " [13] أي: اتّبع الدّين القيّم، ويقال خرج القوم فوجَّهُوا للناس الطريقة توْجِيها، إذ سلكوه حتى استبان أثر الطريقة لمن يسلكه"[14]

و في موضع آخر" وجّه: انقاد واتبع، ووجّه فلانا في حاجة: أرسله. وقيل: وجّه فلانا جعله يتجه اتجاها معينا"[15]

من خلال هذين التعريفين نجد أن معاني وجَّه لا تخرج عن معنى الإنقياد والإتباع وتدبير الأمر واختيار الوجهة الصحيحة.

2– اصطلاحا:

يمكن تعريف الاستراتيجية التوجيهية بأنها نوع من أنواع الاستراتيجيات التخاطبية يسعى فيها المرسل إلى تبليغ قصده، وتوجيه المرسل إليه من خلال استعمال وتوظيف أساليب مختلفة كالأمر والنهي والتحذير والتهديد...وغيرها من الأفعال التي لا تقتضي استعمال المرونة في الخطاب لأن "خطاب هذه الاستراتيجية يعد ضغطا و تدخلا و لو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه وتوجيهه لفعل مستقبلي معين"[16] وهو بذلك يهدر جانبا من مبدأ التهذيب و التأدب الذي لا يكون مناسبا للسياق، وذلك نظرا لطبيعته السلطوية وغاية مرسله الذي يكون غالبا أعلى سلطة من المتلقي في المقام الخطابي فالسلطة هي من العناصر الأساسية في هذه الاستراتيجية التي تعطي للفعل قوته الإنجازية؛ لأن هدف هذه الاستراتيجية هو حمل المتلقي على انجاز فعل ما، كما

تشكل هذه العلاقة السلطوية بين طرفي الخطاب عاملا من عوامل نجاح الاستراتيجية التوجيهية وقد تتفاوت من التباين الشديد إلى التقارب الملموس.[17]

كذلك يرتكز الخطاب التوجيهي على جهة المنفعة منه، "و هذا ما يجعل أحكام الأفعال التوجيهية تسلك اتجاهين إما الوجوب وإما الندب، فإن كان عائد المصلحة للمرسل فحكم الفعل هو وجوب إطاعته وتنفيذه، أما إذا كان العكس-عائد المصلحة للمرسل إليه- فإن الحكم هو الندب."[18]

والمرسل إليه عند تلقيه الخطاب يمكن أن يكون شخصا غير حاضر عيانا لحظة إنتاج الخطاب، يعرفه المرسل معرفة مستقيمة فيخاطبه بشكل صوتي مباشر، أو بواسطة نص مكتوب، مثلما هو الحال في التعليمات الكتابية الموجودة في الأماكن العامة، وسمة هذا الخطاب أنه خطاب يكتسي صفة الديمومة وصالح لكل الحالات المماثلة التي أنتج فيها فسياقه عام ومكرر، كما أنه يعتمد على افتراضات أولية عن المخاطب، و يمكن أن يكون المرسل إليه حاضر عيانا عند التلفظ بالخطاب، فيكون الخطاب مقتصرا عليه والسبب في ذلك هو ضيق السياق الذي يدور فيه الخطاب، "إذ تتدخل فيه سمات الفرد الشخصية والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب، وكثير من العناصر ذات السمات الفردية، وهذا ما يجعل التوجيه منصبا عليه وحده ولا يعد التوجيه فعلا لغويا فحسب، لكنه يعد وظيفة من وظائف اللغة التي تعنى بالعلاقات الشخصية حسب تصنيف هاليداي."[19]

ثالثا- مسوغات استعمال الاستراتيجية التوجيهية:

تتحقق الاستراتيجية التوجيهية في الخطاب من خلال أساليب لغوية كثيرة أهما:

1- الأمر:

وهو أكثر الأساليب استخداما في هذه الاستراتيجية، من أبرز مفاهيمه أنه صيغة تستدعي "طلب الفعل على جهة الاستعلاء "[20] يتضح لنا من خلال هذا التعريف طبيعة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه في سياق هذه الاستراتيجية التخاطبية؛ والتي تستدعي أن يكون الآمر (المرسل) أعلى سلطة من المأمور(المرسل إليه) وهذا ما يؤكده تعريف العلوي بأنه" استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه" أما في الدراسات اللسانية الحديثة فيذهب اوستين إلى أنه " من أرجح معاني كونه يجعل من التلفظ بالصيغة دلالة على الوجوب" فصيغة الأمر لا تتحقق في خطاب هذه

الاستراتيجية تبعا للوضع اللغوي فقط، بل يجب أن تكون مقترنة بالسلطة في مفهومها العام فيصبح "حكمه حقيقة في الوجوب عند توفر هذين الشرطين أي الصيغة اللغوية والسلطة"[21]

3- النهي:

وهو أيضا من الأساليب التوجيهية، و يشترك مع الأمر في أن كلا منهما يتطلب سلطة المرسل فهما يصدران عن صاحب المرتبة الأعلى إلى من هو في مرتبة دونه، قال المبرد في ذلك" واعلم أن الطلب من النهي بمنزلة من الأمر يجري على لفظه كما يجري على لفظ الأمر"[22]

والنهي له حرف واحد" هو لا الجازم في قولك لا تفعل والنهي محذو به حذو الأمر في أصل الاستعمال... وهو أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإذا صادف ذلك أفاد الوجوب حالا وإلا أفاد طلب الترك فحسب، والأمر والنهي حقهما الفور"[23]

4- التحذير:

ويعد أسلوب التحذير أيضا من آليات التوجيه، عرفوه بأنه "تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه."[24] و يتم ذلك من خلال استعمال أدوات معينة في أشكالها المباشرة، وهذا ما يعمد إلى استعماله المرسل في بعض الخطابات وله في هذا مآرب، إذ ينزه نفسه عن تهمة التلاعب بعواطف الآخرين، كما أنه يعطي خطابه قبولا من خلال حضور الصراحة التي تدل المرسل إليه على صدق المرسل في التوجيه، وبالتالي تكسبه الثقة في خطابه"[25] فتمنحه فرض سلطته على المتلقي.

و يشتمل أسلوب التحذير ثلاث عناصر هي:

- المحذِّر: وهو المتكلم الذي يوجه الخطاب لغيره.
- المحذَّر: وهو الذي يتجه إليه الخطاب.
- المحذر منه: وهو السبب الذي يحذر منه المرسل.

و يرد التحذير وفقا لبنية الخطاب المنجزة على خمس صور لغوية هي[26]:

- صورة تقتصر على ذكر المحذر منه، اسما ظاهرا دون تكراره ولا عطف مثيل له عليه.
- صورة تقتصر على ذكر المحذر منه اسما ظاهرا، إما مكررا، وإما معطوفا عليه مثله بالواو دون غيرها.

- صورة تشتمل على ذكر اسم ظاهر مختوم بكاف الخطاب للمحذر، بحيث يكون هذا الاسم هو الموضوع أو الشيء الذي يخاف عليه، سواء أكان مكررا أو غير مكرر، معطوفا عليه بالواو مثيل له أم غير معطوف.
- صورة تشتمل على اسم ظاهر مختوم بكاف خطاب للمحذر.
- صورة تشتمل على كل المحذر ضميرا منصوبا للمخاطب وهو: إياك وأخواته، ويأتي بعده المحذر منه اسما مسبوقا بالواو، أو غير مسبوق بها، أو مجرورا بالحرف "من".

5- الاستفهام:

يعد الاستفهام من الآليات اللغوية التي يستخدمها المرسل في خطابه التوجيهي " لأنها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثم فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث، بل وللسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل، لا حسب ما يريده الآخرون" مع العلم أن أغراض الاستفهام متعددة ومتنوعة ومنها ما يوظفه المرسل كأداة للاستراتيجية غير المباشرة ومنها ما يقتضي التلفظ بإجابة صريحة أيضا ،مثل :

- هل تستطيع أن تفتح النافذة؟

فالمقصود ليس أن يجيبه المرسل بنعم أو لا بل يقصد أن يبلور الإجابة في عمل فعلي. بأن يفتح النافذة على وجه الحقيقة.

وقد فرق "أحمد المتوكل" بين دلالات أنواع الجمل الاستفهامية بحسب ما يترتب عنها من أفعال إنجازية، يقول" يختلف التأويل الدلالي للجمل الاستفهامية الحاملة للقوة الإنجازية الحرفية عن التأويل الدلالي للجمل الاستفهامية الحاملة بالإضافة إلى ذلك لقوة إنجازية مستلزمة كالإلتماس او الإنكار أو الإثبات أو النفي"[27]

كما أن هناك خطابات مبدوء بسؤال لكنها تنتظر فعلا إنجازيا تلفضيا، وليس عملا فعليا فالمرسل "يوجه المرسل إليه بالتلفظ بخطاب جوابي فقط... ومع هذا فإنها (الاستفهامات) تصنف على أنها خطابات توجيهية، إذ يكفي كونها هي الحافز للمرسل إليه للتلفظ بخطابه، وهذا هو مسوغ تصنيفها هكذا"[28]

6- النداء:

يعد من الآليات التوجيهية لأنه "يحفز المرسل إليه لردة فعل تجاه المرسل"[29] وفي اصطلاح البلاغيين " هو طلب الإقبال حسا أو معنى بحرف نائب مناب أدعو" أو هو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة تقوم مقام فعل النداء"[30]، نلاحظ من خلال هذه التعاريف أنها متفقة على معنى الدعوة والطلب والإقبال كما أنها تشير إلى حذف الفعل وإنابة حرف النداء منابه.

ومن أدوات النداء حسب ما اتفق عليها النحويين والبلاغيين : أ، أي، آ، هيا، أيا، وا، آي، ومن أهم هذه الأدوات "يا" وهي أصل النداء وأهم أدواته، وأكثرها استخداما، وهذا يعني أنها تستعمل لنداء القريب والبعيد وفي الاستغاثة والندوبة لامتداد الصوت ورفعه بها"[31]

رابعا– الاستراتيجية التوجيهية في رسائل "يوسف بن تاشفين ".

1– رسالته التي بعثها الى طائفة متعدية من المرابطين كتبها عنه أبو بكر بن القصيرة :

أ– السياق العام:

تتضمن هذه الرسالة تحذيرا وتهديدا لطائفة من المرابطين انحرفوا عن المنهج الذي رسمه "يوسف بن تاشفين" الذي كان يحرص حرصا شديدا على وحدة المسلمين ووحدة بلادهم، وكان يتصدى لكل من يحاول أن يشتت هذه الوحدة بين المسلمين، ويعمل على مخالفة تعاليم الدين الإسلامي، كما هو الشأن ما تقوم به الفرق الضالة من بث الفتنة وشق عصا الطاعة في كل العهود الإسلامية، كفرق الشيعة والخوارج وغيرها ممن يناوؤون سلطة المرابطين ويعارض حكمها، وهذا الذي أثار حفظة "بن تاشفين" وأغضبه فكان لزاما أن يوجه رسالة يحذر فيها هذه الفئة من مغبة الخروج على جماعة المسلمين، تحاول هذه الورقة البحثية أن تستخرج أهم الآليات التوجيهية التي استند عليها "بن تاشفين في إقناع خصومه اعتمادا على منجزات الدرس التداولي الحديث وانطلاقا من الدعامات التواصلية الآتية:

ب– طرفا العملية التواصلية:((المرسل، المرسل إليه):

تقتضي عملية التواصل في الاستراتيجية التوجيهية وجود مسافة بين المرسل و المتلقي، حتى يكون للمرسل تأثير بالغ في المتلقي و"يوسف بن تاشفين" صاحب سلطة فهو القائد وأمير المسلمين، هو الذي وحد المغرب وضم الأندلس تحت ملكه وسلطته، كانت الأمة الإسلامية تتطلع إليه في تلك الحقبة لإنقاذها من براثن التخلف والتشتت، أما الطائفة المتعدية فهي طائفة

من عامة الناس تمردت على سلطانه، وبالتالي فموقعها ضمن عملية التواصل يأتي في المقام الأدنى؛ أي وجب عليها التزام تنفيذ أوامر الباث (يوسف بن تاشفين) وفي هذا السياق تقتضي موازين السلطة انتهاج الاستراتيجية التوجيهية من قبل "يوسف بن تاشفين".

ج– متن الخطاب:

بدأ يوسف بن تاشفين خطابه بالنداء، يقول" أما بعد، يا أمة لا تعقل رشدها، ولا تجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها، ولا تقلع عن أذى تفشيه قربا وبعدا جهدها، فإنكم لا ترعون لجار ولا غيره حرمة، ولا ترقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، قد أعماكم عن مصالحكم الأشر، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم، وأتيتم ما ينكر، في ذلك مقتديا صغيركم بكبيركم، وخاملكم بمشهوركم ليس فيكم زاجر، ولا منكم إلا غوي فاجر، وما نرى إلا أن الله عز وجل، قد شاء مسخكم، وأراد نسخكم وفسخكم، فسلط عليكم الشيطان الرجيم، يغركم ويغويكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم، وكأنكم به وقد نكص على عقبيه عنكم، وقال: إني بريء منكم، وترككم في صفقة خاسرة، لا تستقلونها إن لم تتوبوا في دنيا ولا آخرة، وحسبنا هذا إنذار لكم، وإعذارا قبلكم..."[32]

النداء هنا ذو بعد توجيهي لأنه يحفز المرسل إليه لردة فعل تجاه المرسل، وقد استعمله أمير المسلمين لينبه هذه الطائفة إلى كل ما ارتكبوه من معاصي وعما كانوا عليه من انحراف وظلال، من نبذ المعروف وهتك لحرمات الجار والإقبال على كل منكر، فلفت انتباه هذه الطائفة هو الفعل الإنجازي الذي أراد المرسل تحقيقه من وراء استخدامه للنداء.

ثم بين لهم المصير الذي ينتظرهم إن لم يتوبوا عن هذه المعاصي، وبين لهم أيضا أن الله سيتبرئ منهم ويجعلهم من الذين خسرت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فيوسف بن تاشفين في هذا المقام استعمل التهديد والوعيد وهو أسلوب كثيرا ما يستعمله مستخدموا الاستراتيجية التوجيهية لتحقيق مقاصدهم من الخطاب، المتمثل في ردع المتلقي وكفه عن التمادي في عصيانه.

و تظهر الاستراتيجية التوجيهية في خطابه أيضا من خلال أفعال الأمر والنهي، التي وردت في قوله"...فتوبوا وأنيبوا وأقلعوا وانزعوا واقتصوا من أنفسكم كل من وترتموه، وأنصفوا جميع من ظلمتموه وغشمتموه، ولا تستطيلوا على أحد بعد، ولا يكن لكم إلى أذاه صدر ولا ورد، وإلا عاجلكم من عقوبتنا ما يجعلكم مثلا سائرا، وحديثا غابرا، فاتقوا الله في أنفسكم وأهليكم..."[33]

نلاحظ في هذا السياق أن الأمر ورد بصورة متكررة، وذلك لإصرار المرسل على تثبيت المعنى وترسيخه عند المتلقي وقد برز بمعناه الحقيقي وصيغته الأصلية "افعل" وهي ذات طبيعة توجيهية مباشرة، والتي استعملها "يوسف بن تاشفين" لأنه أراد إلزام هذه الفئة بالانصياع لأوامره ونواهيه وبالإنابة إلى الله بتقواه وخشيته.

كما استخدم أسلوب النهي بصيغته الصريحة، ليدل على حرصه الشديد بتبليغ قصده التوجيهي يقول "لا تستطيلوا على أحد بعد، ولا يكن لكم إلى أذاه صدر ولا ورد.." والغرض هو نهيهم عن الاستطالة على الناس والابتعاد عن أذيتهم، ولكي يحقق غايته ذكّرهم بالعواقب التي ستنجر عن مخالفتهم لأوامره ونواهيه بحيث سيجعلهم محل سخرية أمام الناس ومثلا غابرا لكل من تسول له نفسه أن يؤذي الناس يقول " وإلا عاجلكم من عقوبتنا ما يجعلكم مثلا سائرا، وحديثا غابرا،" وهنا تذكير بالعواقب وهو من الآليات التوجيهية المباشرة والصريحة التي لها أثر كبير في المتلقي، حتى يحقق مقصديته.

ومن الآليات التوجيهية أيضا التي استخدمها في هذا السياق التحذير، وذلك في قوله" وإياكم و الإغترار ، فإنه يورطكم فيما يرديكم ويسوقكم إلى ما يشمت به أعاديكم، وكفى بهذا تبصرة وتذكرة، ليست لكم بعدها حجة ولا معذرة، وما توفيقي إلا بالله تعالى"[34] والمرسل في هذا الخطاب يحذر من الغرور الذي يورط الانسان فيما لا يحمد عقباه، ويسوقه الى ما يشمت به الاعداء، وذلك باستخدام لفظ "اياكم" وهي ضمير النصب المنفصل الذي يبنى مفعول به على التحذير، وهي لفظة مباشرة وصريحة استخدمها "يوسف بن تاشفين" لكي يحقق لخطابه قبولا من خلال حضور عنصر الصراحة التي من شأنها إقناع هذه الطائفة تدلّ هذه الطائفة المعتدية على صدق المرسل في تحذيره.

2- الرسالة التي كتبها الى أهل مكناسة (مدينتين بالمغرب).

أ- سياق الرسالة:

في نفس سياق الرسالة الأولى أرسل "يوسف بن تاشفين" رسالة أخرى إلى أهل مكناسة الذين انحرفوا هم أيضا عن المنهج الذي أرسى قواعده ديننا الحنيف، هي رسالة تحمل بين طياتها الكثير من الآليات والوسائل التي تدلنا مباشرة على الاستراتيجية التوجيهية، التي كانت وسيلته لبلوغ مقصده وغايته من هذا الخطاب، وقد استخدمها لنفس الاعتبارات الأولى منها ما يتعلق بالسلطة

"فيوسف بن تاشفين" صاحب سلطة فهو القائد الذي يحق له أن يتدخل في شؤون الرعايا وأن يفرض عليهم أوامره وأن يقودهم إلى ما فيه خير وصلاح لهم، وهو ما جاء في هذه الرسالة.

ب– متن الخطاب:

بدأ هذه الرسالة بوصف الحالة المزرية التي وصل إليها أهل مكناسة، بسبب نزاعتهم التي أدت إلى تقاطعهم، كما صور أيضا ما كانوا عليهم من زيغ وظلال يقول " أما بعد، أصلح الله من أعمالكم ما اختل، وأصح من وجوه صلاحكم ما اعتل، فقد بلغنا ما أنتم بسبيله من التقاطع والتدابر، وما ركبتم رؤوسكم فيه من التنازع والتهاتر، قد استوى في ذلك عالمكم وجاهلكم وصار شرعا سواء فيه نبيهكم وخاملكم، لا تأتمرون رشدا، ولا تطيعون مرشدا، ولا تأتون سددا، ولا تستقيمون مقصدا، ولا تفلحون إن لم تنزعوا عن غوايتكم أبدا، فلا يسوغ لنا أن نترككم فوضى وندعكم سدى، ولا بد لنا من أخذ قناتكم بثقاف إما أن نستقيم وإما أن نتشضى قصدا"[35] المرسل في هذا المقام يمهد لخطابة التوجيهي وذلك بتنبيه أهل هذه المدينة إلى الحالة التي وصلوا إليها بسبب ظلالهم الذي أبعدهم عن طريق الفلاح مقتديا صغيرهم بكبيرهم، ويحاول إقناعهم بأنهم لن يفلحوا ما داموا على هذه الحالة، وهذا التمهيد جاء لغرض توجيهي يتمثل في محاولة تهيئته في محاولة اقناعه حتى يصبح جاهزا للتوجيه .

ثم تأتي الآليات بعدها بصيغة الأمر في قوله" فتوبوا من ذنب التباغض بينكم و التضاغن واعصوا شياطين التحاقد والتشاحن، وكونوا على الخير أعوانا وفي ذات الله إخوانا، ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يدا ولا سلطانا، واعلموا أن من نزغ بينكم بشر، أو نعب في فتنة بضر، وقام عندنا عليه الدليل، واتجه إليه السبيل، أخرجناه عنكم، وباعدناه منكم، فاتقوا الله، وكونوا مع الصادقين، ولا تتولوا عن الموعظة وأنتم معرضون، ولا تكونوا كالذين قالو "سمعنا وهو لا يسمعون وحسبنا هذا، وبالله التوفيق."[36]

فالأمر واضح في هذا المقام الذي أراد من خلاله المرسل أن يحثهم على الاستقامة والتقوى، وأن يتحدوا على فعل الخير وأعمال الصلاح، وأن يكونوا مع الصادقين، ثم يأتي بعد ذلك التهديد لمن تجاوز هذا الأمر وذلك بإنزال العقوبة الشديدة على كل من خالف هذه الأوامر، وهذا التهديد جاء في محله بعد الأمر و كلاهما مؤشر هام من مؤشرات قصد المرسل التوجيهي، فإن لم يحقق أهل مكناسة مضمون هذه الرسالة خافوا على نفسهم عاقبة ذلك، ولكي يأثر في المتلقي

ويحمله على العمل بمضمون التوجيهات التي ضمها في رسالته ختم رسالته بآية من القران تتناسب مع هذا السياق لكي يحقق أكبر تأثير له في المتلقي.

3- الرسالة التي كتبها إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين490 هـ/1096م:

أ- السياق العام:

يطلب "أمير المؤمنين" في هذه الرسالة من "ابن حمدين " أن يتولى القضاء بقرطبة، وقد اختاره لأنه كان رجل من أهل التقوى والصلاح قادر على مواجهة المشكلات وبالفعل أصاب "ابن تاشفين" في اختياره فحين تولى القضاء أصبحوا جميعا خاضعين له "وفي في هذه الرسالة "يوسف بن تاشفين" يجعل القاضي فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين وفوق الرعية فليس لأحد من كل هؤلاء الحق في أي اعتراض على القاضي في حكم من الأحكام"[37].

ولهذا أكد عليه "يوسف بن تاشفين" أن يعمل فيه وفق أحكام الإسلام وأن يعدل بين الناس ويستخدم سياسة الحلم والحزم في إمضاء الأمور، هي رسالة تضمنت العديد من التوجيهات القيمة التي تدعوا إلى العدل والمساواة وهو ما أهله إلي أن يكون قاضي يخضع له جميع أهل قرطبة.

ب- العلاقة بين طرفي الخطاب:

عناصر هذه العملية التخاطبية هي: المرسل إليه "ابن حمدين" والمرسل: أمير المؤمنين "بن تاشفين" وهو في هذا السياق بصدد تعيين "ابن حمدين" قاضي على قرطبة، وبوصفه صاحب سلطة فقد قدم له مجموعة من التوجيهات والنصائح التي يجب تنفيذها وهنا تأتي دور السلطة التي تتيح له انتهاج الاستراتيجية التوجيهية.

ج- متن الخطاب:

من الآليات التي وردت بكثرة في هذه الرسالة، والتي تؤكد استخدام الاستراتيجية التوجيهية استراتيجية خطابية الأمر: وذلك في قوله" فاستهد الله يهديك، واستعن بالله يعنك في صدرك ووردك، وتولى القضاء الذي ولاكه الله بجد وحزم، وجلد وعزم، وامض القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه، ولا تبال برغم راغم، ولا تشقق من ملامة لائم، وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع قوي في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يكن

لك عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه"[38] جاء الأمر بصيغة صريحة ومباشرة قصد من ورائه "يوسف بن تاشفين" النصح والارشاد حيث طلب منه أن يستعن بالله في جميع قراراته التي يتخذها معتمدا في ذلك على كتاب الله وسنته وأن يعدل بين الناس وان لا يفرق بين القوي والضعيف، وورد أيضا في قوله"...والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعية خلافا في الواجب، فاشكه منها وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن، فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغرم فيما استهلك، فغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه."

وهنا يوجه "يوسف بن تاشفين" القاضي إلى كيفية التعامل مع العامل والرعية في حالة ما إذا ظلم أحدهما الآخر فطلب منه ترك المحاباة وأن يأخذ على يد الظالم ويتثبت قبل الحكم فإذا ثبت له فساد عامل ظربه وعزله وإن استوجب الأمر سجنه وغرمه، فالأمر جاء على حقيقته في هذا السياق كما جاء بصورة متكررة للتأكيد والإلزام وما على المتلقي إلا الإذعان و الالتزام. وهو ما يسعى إليه مستخدم الاستراتيجية التوجيهية.

الخاتمة:

وفي ختام دراستنا الموسومة ب: الاستراتيجية التوجيهية في رسائل "يوسف بن تاشفين" وبالاعتماد على آليات المقاربة التداولية، حاولنا الوقوف عند أهم المعايير العامة لتصنيف استراتيجية الخطاب، وكذلك أهم العوامل التي تأثر في توجيه المرسل لاختيار استراتيجية مناسبة لخطابه تساعده في تحقيق هدفه، ومنها الاستراتيجية التوجيهية التي كانت هي الاستراتيجية البارزة في الرسائل التي اخترناها لتكون محور مقالنا، حيث تجسّدت هذه الاستراتيجية في رسائل بن تاشفين من خلال آليات لغوية توجيهية متنوعة كالأمر والنهي والنداء والتحذير...، وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- تصنف استراتيجيات الخطاب حسب عدة معايير منها معيار العلاقة بين طرفي الخطاب الذي تنتج عنه الاستراتيجية التوجيهية.
- يسعى المرسل من خلال استعمال الاستراتيجية التوجيهية إلى تبليغ مقصده بصيغة صريحة مباشرة بعيدا عن استخدام المرونة ودون اعتبار لطبيعة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه.

- من أبرز مبررات استخدام الاستراتيجية التوجيهية هي الأبعاد السلطوية التي تحكم طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب.
- ارتكز يوسف بن تاشفين في أغلب رسائله على الاستراتيجية التوجيهية ذلك أن سياق هذه الرسائل كان يفرض حضور الآليات والأدوات اللغوية الخاصة بهذه الاستراتيجية كالأمر والنهي والنداء والتحذير وكل وسيلة من هذه الوسائل لها دور في تجسيد الاستراتيجية التوجيهية.
- كان للأفعال التوجيهية أثر كبير في تبليغ قصد المرسل "يوسف بن تاشفين" حيث استعمل أسلوبي التهديد والوعيد خاصة في رسائله الموجهة إلى الطوائف المعتدية وأهل مكناسة الذين انحرفوا عن المنهج الذي رسمه.
- أكثر آليات التوجيه التي استخدمها "بن تاشفين" في رسائله هي: **الأمر** و الذي ورد على الصيغة القياسية " افعل" الصريحة، وذلك لإصرار المرسل على تثبيت المعنى وترسيخه عند المتلقي، والآلية التوجيهية الأخرى التي برزت بقوة في رسائله هي أسلوب **النهي** حيث جاء فيها الفعل على الصيغة القياسية "لا تفعل"، و يعد استعمال النهي بهذه الصيغة دليلا صريحا على حرص "يوسف بن تاشفين" أن يبلغ قصده التوجيهي إلى الطوائف المعتدية التي خالفت التعاليم التي رسمها "بن تاشفين"، وأن يفهموا منه حرصه الشديد على التقيد بالتعليمات وعدم مخالفتها إذ لا تحتمل تأويلا غير معناها الحرفي.

الهوامش:

[1] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، ط1، 2004، ص56.

[2] المرجع نفسه، ص55.

[3] المرجع نفسه، ص 546، 547.

[4] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة(بيروت)، ط1، 2005، ص05.

[5] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص180.

[6] المرجع نفسه، ص180.

[7] جيرار دولودال: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، تر: عبد الرحمن بوعلي، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، 1994، ص25.

[8] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص183.

[9] ناصيف نصّار: منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج(بيروت)، ط2، 2001، ص07.

[10] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص221.

[11] المرجع نفسه، ص220.

[12] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص231.

[13] القرآن الكريم: سورة الروم، الآية 30.

[14] ابن منظور: لسان العرب، ج13، دار صادر للنشر (بيروت)، ط03، 2004، ص558.

[15] الزمخشري: أساس البلاغة، تح: عبد السلام هارون، دار المعرفة(بيروت)، د ط، 1982، ص365.

[16] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص322.

[17] المرجع نفسه، ص325.

[18] ينظر: حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، دار الأفاق العربية(القاهرة)، ط1، 2007، ص55.

[19] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص324.

[20] علي بن محمد الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي(بيروت)، ط02، 2004، ص402.

[21] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص342.

[22] أبي العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط 2، 1998، ص394.

[23] المرجع نفسه، ص349.

[24] عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي(القاهرة)، ط5، 2001، ص152.

[25] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص355.

[26] المرجع نفسه، ص355.356.

[27] أحمد المتوكل: آفاق جديدة في النحو الوظيفي، دار اهلال العربية(الرباط)، ط 1، 1993، ص163.

[28] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص355.

[29] المرجع نفسه، ص360.

[30] حسن جمعة: جمالية الخبر و الإنشاء، إتحاد الكتب العربية(دمشق)، د ط، ص181.

[31] المرجع نفسه، ص181.

[32] أبي نص الفتح بن عبيد الله بن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، مكتبة المنار(الأردن)، ط 1، 1989، ص 307.

[33] المرجع نفسه، ص307.

[34] المرجع نفسه، ص 308.

[35] المرجع نفسه، ص312.

[36] المرجع نفسه، ص313.

[37] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف(القاهرة)، ط1، ص390،391.

[38] ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة(بيروت)، ط1، 1979، ص261.